أمين الريحـــــاني

وأدب الرحلة

د. أحمد أبو حاقة

قـد يكـون من المفيـد في مستهـل هـذا البحث أن نلقي بعض الأضـواء على أدب الـرحلة، لندرك معنى رحلات الريحاني وأهميتها وقيمـة إسهامهـا في التاريـخ والسياسة والاجتماع والأدب والفكـر والحضارة بصورة عـامة. فـأدب الرحلة قـديم، يعود إلى الـزمن الـذي تفتّحت فيه عينا الانسان على الفضول، وعلى التـطلّع إلى ما وراء الحيّز المكاني الذي يقـطن فيه. ومن أبـرز البـواعث عـلى ذلـك، حبّ الاطـلاع، والـرغبـة في اكتشـاف المجـاهـل والأصقـاع من أجـل العلم بهـا، والانطلاق منها إلى مجاهل أخرى وأصقاع جديدة.

عـلى أن العلم للعلم ليس بـاعثـاً كـافيـاً لحمـل الإنسـان على المخـاطرة، وركـوب الأهـوال، وتحمّـل مشقات السفر، والبعد عن بلاد ترعرع فيهـا وأَلِفَها، وعن قوم عاش بينهم وأحبّهم. ولا الرغبة في السياحة والتنزّه والترويح عن النفس، والاستمتاع برؤية مناظر جـديدة، وشعـوب جديـدة، كافيـة وحدهـا كـذلـك لركوب المخاطرات. فحب المغـامرة بـاعث آخر عـلى التطلّع إلى ما وراء الآفاق والسعي إلى ارتياد المجـاهل البعيـدة، وإلاّ فما معنى الأوذيسـة[1]؟ ومـا معنى قيـام أوليس بمغـامراتـه البحريـة، وغيابـه عن وطنه، وعن زوجتـه وابنـه وأهله نحـواً من عشرين، قضـاهـا في الانتقـال من بحر إلى بحـر، ومن جزيـرة إلى جزيـرة ومن هول إلى هول، ليروي فيها بعـد أخبار العجـائب والغـرائب التي تألفت منهـا ملحمـة اليـونـان الثـانيـة أوذيسة هوميروس، وأخت إلياذته؟

وعلى نحو ما فعل (أوليس) فعل السندباد البحري في حكـايـات (ألف ليلة وليلة)، فقـام بـالـرحـلات العجيبـة، وروى أخبار مغـامراتـه ومشاهـداتـه. وإذا كـانت مغـامــرات أوليس، ومغـامــرات السنـدبـاد البحري، قد قـامت على الخيـال، وعلى مـزج الحقيقة بـالأسطورة، استجـابة لـروح المغامـرة، فإن هنـالـك رحلات كثيرة الْتَزَمَت الحقيقة العلمية، وواقع الأسفار والأقـطار، لأنها تجـاوزت حـب الاطّـلاع، وحـب المغـامـرة، وحب الـترويـح عن النفس، إلى تـوظيـف المعـرفـة العلميـة التي تحققهـا الـرحلة في سبيـل خـير الانسـان. وهكذا كـان البـاعث الـرابـع عـلى القيـام بالرحـلات، اكتشـاف البلدان والافـادة من خيراتهـا، سواء عن طريق استثمار هذه الخـيرات، أو عن طريق

الاقامة فيها وتعميرها، أو عن طريق التعامل مع أهلها بالاتّجار والمبادلة. وفي هذا الإطار كانت رحلة السفن المصرية التي سيرتها الملكة (حتشبسوت) في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد إلى بلاد (البُنْت) في ساحل الصومال، والتي خلدتها النقوش البارزة في (الدير البحري) بمصر العليا، بعد عودتها من الرحلة سالمة غانمة. وكانت رحلات الفينيقيين الذين جابوا البحار واكتشفوا الأقطار، وأقاموا المستعمرات. واتصلوا بشعوب العالم القديم، وتاجروا معهم، ورووا أخبار رحلاتهم خطيّاً وشفويّاً، ونخص بالذكر منها رحلة (حنّون) القرطاجي حول القارة الإفريقية، ورحلات عملقون إلى سواحل أوروبا الغربية، وبخاصة الجزر البريطانية أو جزر القصدير.

وهنالك باعث خامس على الرحلة، هو التوسع العسكري والانتشار في أصقاع الأرض، إمّا تفتيشاً عن مجالات حيوية جديدة وبسط السيطرة عليها، وإمّا سعياً إلى نشر رسالة حضارية، أو بغية الاثنين معاً. وهذا ما ينطبق على الرحلات اليونانية والرومانية التي مهدّت للحملات العسكرية أو رافقتها، أو كانت نتيجتها، كرحلة (هيرودوتس) إلى مصر وبابل وفينيقيا وبلاد فارس وسواحل البحر الأسود، ورحلة (سيلاكوس) **البحّار** حول افريقية والمغرب وسواحل المحيط الأطلسي. أما الباعث السادس على الرحلة، فهو التعرّف إلى أجزاء البلاد التي تربطها روابط سياسية، أو ثقافية، أو دينية، أو اقتصادية، أو اجتماعية، أو حضارية بصورة عامة، لدراسة أقاليمها، وجغرافيتها وتاريخها، ومجتمعاتها، وطرق عيشها، ولغاتها، وثقافاتها، ومنتجاتها الزراعية والصناعية، وثرواتها الطبيعية، ومسالكها، وعمرانها، وخصائصها العامة، أو لزيارة مقدساتها، أو مؤسساتها العلمية والحضارية ـ وغالباً ما يُتَوَخّى في مثل هذه الرحلات، وضع الأسس النظرية والعملية لتقوية العلاقات والروابط بين أجزاء البلاد، وتوحيد إمكاناتها، وتوثيق عرى الأخوة والصداقة والتعاون بينها، والعمل على تنميتها وإغنائها وازدهارها لتؤدي رسالتها الحضارية في الكون. وفي هذا الاطار تقع رحلات سليمان التاجر، والمسعودي، والبغدادي، وناصر خسرو، وابن جبير، وابن حوقل، وابن خرداذبة، وابن بطوطة في العصور الوسطى، ورحلات أمين الريحاني في العصر الحديث.

أمين الريحاني في أدب الرحلة

ولد الريحاني عام 1876، ولما بلغ الحادية عشرة من عمره، قام بأول رحلة في حياته إلى الولايات المتحدة الأميركية. لم تكن هذه الرحلة سياحية استطلاعية استجمامية، وإنما كانت رحلة تعيُّش نفذها الأمين تحت وطأة الفقر والحاجة إلى الارتزاق، أسوة بكثيرين غيره من اللبنانيين والسوريين الذين هاجروا إلى الأمريكيتين في تلك الحقبة من الزمن، وقد أمضى السنوات العشر الأولى في الدراسة والعمل والتمثيل، ولم يحالفه التوفيق، فاعتلّت صحته، وعاد إلى لبنان عام 1898 ليقيم في ربوعه نحواً من سنتين، راوده الحنين بعدهما إلى الولايات المتحدة، فشد رحاله إليها من جديد حاملاً معه ثمرة إقامته في لبنان، صحة جيدة، وترجمة انكليزية للزوميات أبي العلاء المعري. وبهذه الترجمة أطل الريحاني على الأمريكيتين أديباً شاعراً مثقفاً يتقن اللغة الانكليزية، ويكتب فيها بصفاء وذكاء وعمق؛ وقد نال شهرة واسعة بينهم، وأحيط بهالة من الاعجاب والتقدير، تركزت وتثبتت دعائمها يوم طلع عليهم بكتاب «خالد» و«بأناشيد الصوفيين».

وتوالت أسفار الريحاني بين الولايات المتحدة ولبنان ومصر وسوريا والعراق وفلسطين وفرنسا فالولايات المتحدة من جديد عندما أعلنت الحرب العالمية الأولى، وقد أضحى مفكراً وأديباً وشاعراً وفناناً ذائع الصيت في كل من أميركا وبلاد العرب، يكتب

باللغتين: العربية والانكليزية ويخطب بهما، وينظم بهما شعراً، ويتهافت الناس على قراءة ما يكتب، وسماع ما يقول.

في عام 1915، أرسلته مجلة بوكمن التي كان يحرر فيها إلى باريس ليوافيها بأخبار الحرب هناك، فطاف في أرجاء فرنسا، ولما اشتد عليه خطر الحرب، هرب إلى اسبانيا، فزار اشبيلية وغرناطة، وقرطبة، وسائر المدن الاندلسية، فملأه ذلك زهواً واعتزازاً بحضارة العرب وتاريخهم وأمجادهم. وقد قال في هذا الصدد: «إن في قلب الأندلس ملجأً قلما يلجأ الأندلسيون إليه. هناك مقام لا تسمع فيه ضجة العيد كان له من السرور أيام زاهرة، ومن المجد أعلام وقباب ما تبقّى منها اليوم غير قصور متهدمة، نبتت في جدرانها الأعشاب، ونظم العنكبوت مرثاته فوق النوافذ منها والأبواب، وجلس في عروشها العالية السكون، ودفن في جنباتها المهجورة الشعر والأدب والفنون. طلول كانت بالأمس معاهد وقصوراً، هذي آثار العرب، وقد أمست عروشاً لربة النسيان ومدفناً لمجد الزمان، وعبرة بليغة للإنسان»[2]. وعندما أعلنت الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا، عام 1917، سارع الأمين في عودته إلى نيويورك، فانضم إلى لجنة تحرير سوريا ولبنان، وراح يناضل بلسانه وقلمه من أجل القضية العربية، لاسيما وأن ثورة الشريف حسين على الأتراك قد حققت بعض النجاح. ولما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، استبدت بالأمين فكرة الرحلة إلى جزيرة العرب لاسيما بعد أن قرأ كتاب «الأبطال» لكارليل، فتعرف من خلاله على شخصية النبي العربي، وعلى تاريخ العرب وأمجادهم، وبعد أن انكشفت الحرب عن قضية عربية جديدة ذات حدود وأبعاد استقلالية تحررية؛ فانصرف إلى التفكير في السفر من جديد إلى البلاد العربية تفكيراً نقل معنى السفر في نفسه وذهنه من مجرد رغبة في السياحة والاطّلاع إلى رغبة في العمل لجمع كلمة العرب وتصفية قلوب الملوك والأمراء بعضهم على بعض. يقول في هذا الصدد: «رافقت العرب في خروجهم على الترك أثناء الحرب. رافقتهم في المجلات الانكليزية والجرائد العربية، فكنت أقوم فيها أكتب ببعض الواجب الذي يفرضه الحب والإعجاب. وتوفقت في تلك الأيام إلى زيارة الأندلس فوقفت في الحمراء، في الغرفة التي كتب فيها واشنطن إرڤينغ (Irving) كتابه النفيس، فسمعت أصواتاً تناديني باسم القومية من أجل الوطن، وتدعوني إلى مهبط الوحي والنبوّة»[3].

وما إن استهلّ العَام 1922، حتى رأينا الريحاني يودّع زوجته ويمضي من نيويورك إلى البلاد العربية، واضعاً روحه وحياته في كف القدر، ومبتدئاً رحلته الأولى من أميركا إلى الجزيرة العربية.

لندع الريحاني يحدثنا قليلاً في مستهلّ ما كتبه عن هذه الرحلة. قال: «كنت في الثانية عشرة من عمري عندما سافرت للمرة الأولى إلى الولايات المتحدة، فلم أكن أعرف غير اليسير من اللغتين: العربية والفرنسية. وما كان في ذهني من العرب وأخبارهم غير ما كانت تُسمعه الأمهات في لبنان صغارهن: هس، جا البدوي! والبدوي والأعرابي واحد إذا رامت الأم بعبعاً تخوّف به أولادها.

هجرت وطني، وفي صدري الخوف ممن أتكلم لغتهم، والبغض لمن في عروقي شيء من دمهم. والبغض والخوف هما توأما الجهل. [أما الأمة الفرنسية فما كنت أعرف من أمم الأرض سواها - ولكنها معرفة مطوّسة (أي فيها زهو الطاووس) كانت المدارس تنشر أذناً بها في لبنان. «إن فرنسا لأعظم أمم الأرض، هي أشرفها، وأغناها، وأرقاها؛ بل هي قطب المدنية وعاصمة النور والجمال. هي الطاووس بين الأمم]. أما أميركا، فقد كنت فيما عرفته منها بعيداً عن الأم وعن المدرسة. تناولت الكأس من يد الوجود، وقد ملأها الشعب الأميركي

بنفسه، ومع ذلك فلم تخل مما تميزت به الكأسان الأوليان. رشفت في نيويورك الجام تلو الجام من العلوم المشوبة وفيها أشياء من الجهل المتلألىء. غدوت بعد عشر سنين في أميركا معجباً بنشاط الشعب الأميركي، وبحريته في الفكر والقول والعمل، خائفاً من نتيجة الجهاد المادّي هناك ومن التكالب في سبيل الحياة الدنيا... خفت أن أغلب في ذاك الجهاد، أشفقت على نفسي من ذلك التكالب؛ ونسيت فرنسا إلاّ في آدابها، تلك الآداب التي زادتني ضعفاً وتردّداً في مضمار الحياة. صرفتني عن حقائق الوجود المادية، وزينت لي في الفنون الجميلة الحقائق المعنوية. صرت في نيويورك كئيباً يحمل كتاباً، وغاوياً من غواة الفنون، يمشي في الجنائن العمومية... ولكن الآداب الانكليزية عادت بي إلى الشعب الانكليزي فوجدته في أمور كثيرة أخلاقية واجتماعية أرقى من الشعب الأميركي، أو أحبّ إلى من كان مثلي... والفضل في ذلك هو لفيلسوفهم (أمرسون) الذي كان دليلي الأول إلى محاسن الانكليز في ما كتبه عنهم وعن سجاياهم. وقد عرّفني (أمرسون) إلى (كارليل) أول من عاد بي من وراء البحار إلى بلاد العرب. أجل وقد يستغرب قولي: إني عرفت بوساطة الكاتب الانكليزي الكبير سيد العرب الأكبر النبي محمد! فأحسست لأول مرة بشيء من الحب للعرب وصرت أميل إلى الاستزادة من أخبارهم. وفي غزواتي للكتب الانكليزية غنمت كتاباً استوقفني ظاهره الفخم وراقتني الصور فيه... قرأت كتاب «الهمبرا» لواشنطن إرفنغ. فأدركت أن المؤلف يريد بالعنوان الحمراء، وعرفت أن الحمراء هي لؤلؤة تاج العرب في الأندلس.

لله أنت أيتها البلاد العربية التي لم يشأ الله أن أجهلك حياتي كلها، فبعث إليّ وأنا بعيد عنك إنكليزياً يعرّفني إلى رسولك، وأميركياً يصف لي محاسن أبنائك.

بعد أن قرأت كتاب الحمراء مازج عقليتي الأميركية الفرنسية الانكليزية شيء من الخيال الشرقي، فصرت أحلم بذاك المجد الماضي أحلاماً تمثّلني حيّاً فيه، أو تمثّله حيّاً أمامي. عدت إلى بلادي كئيباً يحمل كتاباً، ويرغب في أن يكون الكتاب مئة كتاب، وكنت لا أعرف من لغتي وآدابها غير اليسير اليسير، فتغلغلت في سراديبها دون أن أرثي لحالي، وبينا أنا أتخبّط في دياجي اللغة عثرت على كتاب شعر أنساني الكسائي وسيبويه وكل من علّم حرفاً في البصرة والكوفة. جمعني الله سبحانه وتعالى بأبي العلاء المعري بعد أن هداني بوساطة الفيلسوف الانكليزي إلى الرسول العربي. قرأت اللزوميات معجباً بها، ثم قرأتها مترنّحاً، ورحت أفاخر بأني من الأمة التي نبغ فيها هذا الشاعر الحرّ الجسور الحكيم.

عدت إلى أميركا، أستصحب صاحب اللزوميات، وكنت ترجمانه هناك فساقتني المهنة إلى الدائرة الشرقية في دار الكتب العمومية. فاجتمعت فيها بعدد من المستشرقين الذين صوّروا لي الحياة رحلة في الأرض دائمة، وصوّروا الأرض بادية عربية نبغ فيها محمد بن عبدالله القرشي وامرؤ القيس الكندي. الشعر والنبوءة والدهناء، والواحات في بحار من الرمل، والنخيل في الواحات يهمس في أغصانها النسيم، وتهزّ جذوعها السموم، وصوت الساقية وهي تغني للأرض المنعمة في ظلال النخيل، وبنيّة البدو، تغني لجمل الساقية. وماذا في نيويورك؟ ماذا في نيويورك غير الضوضاء والعناء والبلاء؟ هذا الرحّالة بلغراف Palgrave، وترجمانه اللبناني الذي صار بعدئذ بطريركاً عظيماً، (البطريرك الجريجيري) يحدثاني عن «شُمّر» و«القصيم» و«العارض» و«الرياض». وذاك المستعرب بُرْكهارت Burkhardt، وقد دخل إلى مكة حاجّاً مسلماً صادقاً نقيّاً. وهذا العلاّمة بُرتُن Burton يقصّ قصة عجيبة بطلها بزّاز من سمرقند قد حمل الكيس (تفتا هندي، شاش، حرير يا بنات) ليكشف

له أسرار الحريم، ثم ركب العيس وكان دليله إبليس فاقتفى أثر بركهارت لغرض في النفس، ونظم قصيدة كفّر بها عن كل مآتيه في التبليس. كل هؤلاء الأجانب يسيحون في بلاد كانت قديماً ـ ولا شك ـ بلاد أجدادي، ويخاطرون بأنفسهم فيها حبّاً بالعلم، فيكشفون منه المخبأ ويجلون الصدأ، ويقربون البعيد، ويغربون في اللذيذ المفيد.

في نيتي رحلة إلى البادية، إلى البلاد العربية، على هجين يبعدني عن كل مظلمة، وعن كل عبودية... ومن الأحلام ما يصبح جزءاً من حياة الانسان فلا تنفك تزعجه وتحرّضه وتستحثّه حتى يسعى في تحقيقها.

رافقت العرب في خروجهم على الترك أثناء الحرب،... أكبرت الملك حسيناً الذي استنفر القبائل على الترك، وأرسل أولاده الأمراء الأربعة إلى ساحات الوغى. وعندما انتهت الحرب كان الملك حسين أول من صوّرته الآمال ملكاً يفتح لي بابها. وبينا أنا أفكر في طريقة تحمل إليه أمنيتي القصوى جاءتني مجلة صديقي سليم سركيس، وفيها خبر زيارته لتلك السدّة الهاشمية المباركة. وأهمّ من ذلك يومئذ خبر قرأته مدهوشاً مسروراً| عن صديقي قسطنطين ينّي، الذي أبعدته عني الحرب العظمى وحرمتني أخباره. فجاء العزيز سركيس كأنه رسول العناية إليّ يبشّرني بوجوده في خدمة الملك حسين. هلّلت وكبّرت وتناولت القلم وكتبت توّاً إلى العزيز قسطنطين كتاباً فيه بين السلامين مئة سؤال وسؤال أولها: هل يأذن جلالة الملك بالزيارة؟ وآخرها: هل ترافقني أنت في هذه الرحلة؟ وما مضى الشهر الأول ونصف الثاني حتى جاءني الجواب، وفيه ما يلي:

«اتفق أن وصل كتابك إليّ وجلالة الملك حسين في جدّة، فقرأته له كلمة كلمة، وتباحثنا في الموضوع، وهو يرحّب بك إذا حضرت. ولا لزوم للسياحة في جزيرة العرب كلها، فهو يساعدك على زيارة الحجاز من أقصاه إلى أقصاه، ويعطيك المعلومات اللازمة، ويطلعك على جميع العقود والنصوص والمفاوضات بينه وبين الدول من مطلع النهضة إلى اليوم، ليكون في استطاعتك تأليف كتاب عن العرب مستوفىً من جميع أبوابه. ومن رأيه أنك لو درست أخلاق قبائل الحجاز تكون قد درست أخلاق بقية القبائل لأنهم كلهم متقاربون في العادات والمشارب. أما زيارتك الرياض وابن سعود فهذه مستحيلة لاستحكام العداء بينه وبين الحجاز. والسياحة توافق أن تكون في فصل الشتاء، ولا تستغرق أكثر من أربعة أشهر، ولو انتهت في بغداد. وإني بكل سرور أرافقك حيث شئت.

أما الكعبة، فلا يؤذن لك بزيارتها في الوقت الحاضر، للأسباب المعروفة. والسياحة تكلفك لا أقل من خمس مئة جنيه. (ثم يتابع الريحاني): في اليوم الخامس من شهر شباط 1922م (8 رجب 1340 هـ) وطئت لأول مرة أرضاً في شبه الجزيرة العربية وقابلت ملكاً ما عرف العرب غيره من ملوك العرب. جئت من نيويورك أزوره وفي قلبي بعض التردّد مما تصورته في رسمه الذي نشرته الجرائد، وقد اجتمعنا في جدّة يوم وصلت إليها»[4]. ويمضي في الحديث بعد ذلك عن الرحلة العربية الأولى التي كانت حلماً فأضحت حقيقة، والتي أنتجت كتاب: «**ملوك العرب**».

أما الرحلة الثانية، فكانت إلى العراق، وقد أنتجت كتاب: «**قلب العراق**». والثالثة إلى المغرب الأقصى والأندلس وقد دونت أخبارها في كتاب: «**المغرب الأقصى**». والرابعة في ربوع لبنان على نحو ما نجد في: «**قلب لبنان**».

وطبيعي أن نبدأ الحديث عن الريحاني وأدب الرحلة بكتابه: «**ملوك العرب**».

أما أحداث الرحلة فتتوالى كما يلي:

- وصول إلى جدة يوم الخامس والعشرين من شباط عام 1922 م.

- اجتماع بالصديقين: قسطنطين يني وفؤاد الخطيب.
- اجتماع بالملك حسين وإطلاعه على الغاية من الرحلة.
- سياحة في أرض الحجاز، واطّلاع على ما فيها طبيعةً وعمراناً وبشراً، ومشكلات سياسية واجتماعية واقتصادية وتربوية وحضارية بصورة عامة.
- تشاور مع الملك حسين الذي اطمأن إلى الريحاني وإلى إخلاصه في محبة العرب وخدمتهم، ومناقشة للمشكلات التي تتخبط فيها البلاد، وعرض مشروع على الملك هدفه توطيد السلام بين أسياد العرب، وبرمجة تعاونهم في سبيل العمران والرقيّ والتطوّر والخروج من التخلف الذي تتخبّط فيه البلاد. والنقطة الأولى في هذا المشروع عقد معاهدة ثنائية بين الملك حسين والامام يحيى إمام اليمن لتكون تمهيداً لمعاهدة أوسع نطاقاً تشمل أسياد الجزيرة كلهم، فوافق الملك حسين شرط أن يعترف به الامام ملكاً على العرب.
- الرحلة إلى اليمن بعد استئذان الامام يحيى بدخولها.
- قسطنطين ينّي يرافق الأمين في سفره.
- الوصول إلى عدن والخضوع لمعاملات بريطانية.
- نصيحة الحاكم البريطاني للريحاني ورفيقه بعدم السفر إلى صنعاء تلافياً للكثير من الأخطار.
- الريحاني يتحدى المخاطر ويقرر الذهاب إلى اليمن، لكنه ظل ينتظر جواب الإمام يحيى.

وعندما جاء الجواب بالترحيب، شدّ رحاله وقال: «وقبل انبلاج الفجر ركبنا سيارة صغيرة وخرجنا من لحج نبغي الدّكيم التي كانت يومئذ حدود السلطنة اللحجية شمالاً، وعند الغروب وصلنا إلى قصر السلطان علي بن مانع في المسيمير سلطان الحواشب» وبعد مقابلته تابعا طريقهما إلى صنعاء.

- بلوغ صنعاء عاصمة اليمن في الثامن عشر من نيسان عام 1922 م بعد مسيرة أسبوعين كاملين مغمورة بالمشقات.
- استقبال الامام يحيى للزائرين بحفاوة بالغة، واستفهامه عن الغاية التي يرميان إليها من الزيارة.
- اطمئنانه إليهما وإلى حسن نيتهما ورغبتهما في خدمة العرب جميعاً لتوحيد كلمتهم.
- إقامة الريحاني وصديقه في اليمن وسياحتهما في ربوعه واطلاعهما على أحواله.
- توثيق العلاقة بين الريحاني والامام يحيى، والتشاور في الأمور السياسية والاقتصادية والعلاقات الدولية. وحث الريحاني للامام على التفاهم مع الانكليز والتعاهد مع الملك حسين وابن سعود بغية الاستقرار السياسي.

يقول الأمين: «إني أشتهي أن تكون البلاد العربية مستقلة استقلالاً سياسياً تامّاً. ولكني أغار عليها من دسائس السياسة الأجنبية. إنما السبيل القويم هو في اتحاد ملوك العرب وأمرائها اتحاداً لا يقدح بسيادة كل منهم ولا يجحف باستقلالهم المركزي التاريخي» كما حاول فيها إقناعه بفتح البلاد للتجارة الأجنبية ونشر الثقافة والصناعة والعلوم الحديثة فيها. ولقد رضي الامام بعقد معاهدة ولائية مع الحجاز كتبها الريحاني بنفسه وأرسل نسخة منها إلى الملك حسين.

- جمع المعلومات عن بلاد اليمن (طبيعتها ـ مواردها ـ عادات أهلهاومستوىرقيهم الاجتماعي، وتأثير الامام وحكمه).

يقول الريحاني: «من فوائد السفر البطيء على ما فيه من مشقة وعناء أنه يمكّن طالب العلم من الدرس والاستقصاء والاكتشاف، كنا في طريقنا من لحج إلى صنعاء سؤالاً مجسماً، سؤالاً حيّاً متحركاً إذا أذن لنا بالاستعارة. وحسبنا في بعض الأماكن أن نقف ساكتين صابرين، فيجيئنا صاحب الامام مادحاً، ويجيئنا عدو الامام قادحاً، فضلاً عن الفلاحين والجنود، وقد عضّهم البؤس والفقر. يجيئوننا شاكين

ومتبرعين همساً بما نبغيه من معلومات. فوصلنا إلى صنعاء وعندنا خيرات من أخبار اليمن والزيود»[5].

- إقامة طويلة في اليمن وإعجاب متبادل بين الريحاني والامام يحيى.

- انتهت اقامة الريحاني في اليمن باستئذان الرحالة وانتقاله إلى زيارة السيد الادريسي في الحديدة.

- عرض مشروع معاهدة رباعية بين الادريسي والامام يحيى والملك حسين وابن سعود نشداناً للسلام والتعاون.

- بعد جواب إيجابي توجه الريحاني إلى لحج، وكتب إلى السلطان عبدالعزيز آل سعود يستأذنه للزيارة ويخبره بما حدث معه حول المعاهدة.

- طال انتظاره للاذن، لكنه حصل عليه في النهاية. وقصد السلطان عبدالعزيز، فلما التقاه اعتذر الريحاني عن إبطائه فرد السلطان مبتسماً: «أما نحن فما ترددنا ولا أبطأنا في الجواب. وكيف نرد من يبغي زيارتنا وهو من صميم العرب ـ قالوا لنا: إنك أميركي جئت تبشر بالدين المسيحي في البلاد العربية ـ وقالوا: إنك تمثل بعض الشركات وجئت تبغي الامتيازات. وقالوا إنك قادم من الحجاز، وإنك شريفي تسعى لتحقيق دعوة الشريف، وقالوا غير ذلك، فقلنا إذا كان في الرجل ما يضرّ، فنحن نعرف كيف نتقيه، وإذا كان فيه ما ينفع، فنعرف أيضاً كيف ننتفع. ونحن نعلم يا حضرة الأستاذ بمهمتك، بارك الله فيك»[6].

أما الريحاني فقد أخبره بأهدافه الثلاثة قائلاً: «أما الهدف الأول فقد تمّ بمشاهدتكم، وسيتم الثاني بما سأكتبه إن شاء الله. أما الثالث فلا يتم إلاّ بمساعدة ابن سعود، وإني متيقّن يا مولاي أن الوحدة العربية لا تتحقق إلاّ باجتماع أمراء العرب كلهم بالتعاون أولاً، والتفاهم. فهم اليوم في معزل بعضهم عن بعض، إذا لم نقل في احتراب دائم»[7].

أقام الريحاني في نجد نحواً من شهرين وكان يلتقي سلطانها كل ليلة تقريباً، إلاّ حينما يكون على سفر.

وقد جمع معلومات كثيرة أدهشته لما لمس من حب الشعب لابن سعود، وثقته به وبعدله. ثم انتقل إلى الكويت وفيها التقى حاكمها سموّ الشيخ أحمد الجابر آل صباح وحاشيته، وأقام في كنفه. وتحدث معه حول مختلف الشؤون والتقى أيضاً الشيخ خزعل سردار عربستان، ثم سافر إلى البحرين ومنها إلى العراق بعد أن أتاه كتاب من الملك فيصل يرحب بزيارته.

- في العراق طالت إقامة الريحاني قليلاً، وكانت له صولات وجولات، مع الملك فيصل حول السياسة العالمية، والوحدة العربية وأحوال العرب الاجتماعية والاقتصادية والتربوية.

وفي العراق مناخ ثقافي يختلف عن مناخ الجزيرة العربية ـ فكان للريحاني لقاءات فكرية وأدبية وندوات ومحاضرات وحفلات شاي تكريمية. وتبادل الشعر مع الرصافي والزهاوي. ولقد خاطبه الرصافي مرة قائلاً:

من أين يرجى للعراق تقدم
وسبيل ممتلكيه غير سبيله
لا خير في وطن يكون السيف
عند جبانه والمال عند بخيله
والرأي عند طريده والعلم عنـ
ـد غريبه والحكم عند دخيله
وقد استبد قليله بكثيره
ظلماً وذل كثيره لقليله

أما الريحاني فخاطب الأقطار العربية باسم الحرية قائلاً:

«هي الحرية جاءت تزور البلاد العربية وتزرع فيها بذورها الطيبة النقية، ابتسمت في الحجاز ابتسامة المريض، وبكت في تهامة بكاء اليائس، وضحكت ثم تأوهت في اليمن، وجلست تستريح في العراق. هي الحرية تخاطبك أيتها البلاد العربية، هي الحرية تخاطبكم يا أسيادي أصحاب العظمة والجلالة، أيها

الملوك والائمة والأمراء والسلاطين. إن في كلمة واحدة اليوم حياة هذه الأمة، والكلمة لكم، فهل أنتم بها ناطقون؟ الكلمة (الاتّحاد) فهل أنتم في أمر واحد متحدون؟ والأمر الأول الجوهري (الصلح) فهل أنتم في الصلح راغبون. والصلح أساس الوحدة العربية، فهل أنتم في سبيل الوحدة مجاهدون؟ والوحدة العربية أساس الحرية القومية، فهل من حرمة تعزّزون؟ وحرمة الأمة لا تعزز بغير العلم الصحيح فهل من معاهد للعلم تشيدون؟ إذا كنتم تفعلون ما في الحرية أقيم بينكم وأبشركم بمستقبل مجيد؛ وإلّا فسأعود إلى أقصى البلاد وألبس على بلادكم العزيزة الحداد»[8].

ولما أنهى زيارته للعراق عاد إلى (الفريكة) قريته في لبنان ليؤدّي إلى العالم حساباً ضافياً عن رحلته العجيبة. وقد ترك لدى أسياد الجزيرة وقبائلها خير ما يترك زائر كريم. وهكذا وضع الأمين كتاب «ملوك العرب»، فقال في مقدمته: «وهذا الكتاب فيه ترجمة سبعة من أمراء العرب غير الحسين بن علي وكلهم ملوك وإن اختلفت الألقاب؛ مستقلون بنعمة الله بعضهم عن بعض، وجاهلون شخصياً بعضهم بعضاً. فإننا إذا استثنينا الملك حسيناً وابنه الملك فيصلاً قد لا نجد بينهم من يعرف زميله الملكي معرفة شخصية خاصة، ويعرف من الأقطار العربية معرفة حقيقية تامة غير القطر الذي يحكمه. ليس في ملوك العرب اليوم ملك ساح في البلاد العربية كلها. وليس فيهم من يستطيع أن يقول: «إنني أعرف بلاد العرب وحكامها وسكانها وقبائلها وأحوالها الاقتصادية والزراعية وشؤونها السياسية الداخلية والخارجية مما لديّ من تقارير العارفين وأخبار المنزّهين عن الأغراض السياسية والتحزّبات المذهبية ولا أستثني من هذا القول الملك حسيناً والامام يحيى او السلطان عبدالعزيز بن سعود. - فها أنا إذن في هذا الكتاب، ولا فخر ولا اعتذار، أعرّف سادتي ملوك العرب بعضهم إلى بعض تعريفاً يتجاوز الرسميات والسطحيات. وليتحقق سادتي أن ليس في الثناء فيما كتبت تزلّف أو مداهنة، ولا في النقد تشيّع أو تحامل، إنما غايتي القصوى تمهيد السبيل إلى التفاهم المؤسس على العلم والخبر اليقين.

على أني متيقّن أن من يطالع هذا الكتاب من الناطقين بالضاد مهما يكن علمه في البلاد العربية وأهلها، يجد فيه بعض الجديد المفيد، ولإخواني الأدباء خاصة في سوريا كانوا أو في مصر أو في أميركا أقول: تعالوا سيحوا معي فتعودوا إلى ما أبعدكم عنه التفرنج والتأمرك. إلى حقائق لمسنا ظلها في آداب العرب القديمة، وإلى حقائق أنستنا إياها الأيام والغربة، وإلى حقائق يجهلها كثيرون حتى من العرب أنفسهم، وإلى حقائق ننقلها عن علماء الافرنج ملتوية مشوهة.

تعالوا سيحوا معي فتعودوا إلى بلاد عجيبة على فقرها، وإلى شعب كريم على آفاته، وإلى أمة حرة أبية على ذنوبها. إن البغض والخوف توأما الجهل. وإن الروح الذي يسعى في إبعادنا عن العرب لا يفلح إن شاء الله في مسعاه؛ فلقد بدّدت الأيام الأوهام التي صورت لنا الكمال في الأمم الأجنبية، وعسى أن هذا الكتاب يبدّد الأوهام التي صورت لنا «البعبع» في العرب»[9].

عندما ظهر كتاب «ملوك العرب» عام 1924، أحدث ضجة كبرى في الأوساط الأدبية، وتناولته الأقلام بالدراسة والتحليل والنقد والترجمة إلى اللغات الأجنبية، وبلغت شهرة الريحاني ذروتها فيه. ولا ريب في أن الكتاب كنز ثمين في المكتبة العربية، فيه الأدب والفن والعلم والتاريخ والجغرافية والفلسفة وفيه السياسة والاجتماع والاقتصاد والدين والحضارة، وفيه فوق ذلك المغامرة والشجاعة والظرف والحكمة والنقد والتوجيه والمعرفة العميقة بأسرار الحياة وطبائع البشر وعالم الجزيرة العربية بكل ما فيه من المتناقضات

والمتآلفات، والحسنات والسيئات، والخير والشرّ، والتعاون والتنابذ، ووصف الطبيعة وأقاليمها وحيوانها وأشجارها، والمجتمعات ونظمها وعاداتها وتقاليدها ومعتقداتها الدينية، وأساطيرها وترّهاتها، وفقرها وغناها وما بلغته من وجوه الوعي والمعرفة والحضارة. ناهيك بذكاء الأمين ودقة ملاحظته، وعمق تفكيره، وذوقه الأدبي، وقدرته على التعبير والتصوير والتأثير، وأسلوبه في الكتابة والرواية وذكر الوقائع وفهمها وتحليلها واستنتاج الحقائق منها. مما يجتذبك إلى مطالعة الكتاب ويحملك على متابعته، ويثير لديك الأفكار الكثيرة، وضروب المشاعر والأحاسيس، ويجعلك تشارك الريحاني بسهولة عفوية آراءه وأهدافه وتصوّراته.

وعلى جوانب ملوك العرب ظهر كتابان متمهان؛ أولهما: «**تاريخ نجد الحديث**» وثانيهما: «**قلب العراق**».

أمّا «تاريخ نجد الحديث» فيتناول موضوعات ثلاثة هي: نواحي نجد، ومحمد بن عبدالوهاب والوهابية، وآل سعود منذ نشأتهم إلى حين استيلاء محمد بن الرشيد على نجد. وأهم ما في الكتاب، سيرة عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل فيصل آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها. وأما الدافع إلى تأليف الكتاب فيشير إليه الريحاني في المقدمة حيث يقول: «وعندما جئنا الرياض وبدا من عظمة السلطان ذاك التعطّف الخاص الجميل، فأنزلني في القصر، وكان يشرّف منزلي كل ليلة بعد صلاة العشاء، تشجعت فاستأذنت بأن أكون مؤرّخه فأجاب وكان الجواب مبهجاً: ما يخالف، لا باس، فاستويت واقفاً وشكرته ثم قلت: خير الله عاجله، لنبدأ إذا أمرتم الآن.

ـ ما يخالف.

وكان على المنضدة الورق والحبر، فجلست أكتب ما رواه تلك الليلة من أخباره الأولى في الكويت»[10].

والكتاب مرتّب على النحو التالي:

1 ـ **نواحي نجد**، وهي الأفلاج، وادي الدواسر، نجران، الخرج، الحمادة، العارض، الشعب، المحمل، سدير، الوشم، القصيم، جبل شمّر، وادي سرحان، الاحساء.. الخ.

2 ـ **محمد بن عبدالوهاب** مولده عام 1115هـ = 1703م.

وفاته عام 1206هـ = 1791م.

مؤلفاته: التوحيد فيما يجب من حق الله على العبيد ـ السيرة المختصرة كشف الشبهات ـ كتاب الكبائر، أصول الايمان، فضائل الاسلام، مختصر صحيح البخاري، مختصر زاد المعاد، مسائل الجاهلية، مجموع الحديث، استنباط القرآن.

نسبه: ينتهي إلى نزار فمعدّ فعدنان.

محمد بن عبدالوهاب والوهابية:

يقول الريحاني: «قبل ظهور هذا المصلح النجدي، كان العرب في نجد، بل في الشطر الشرقي من شبه الجزيرة منغمسين في عقائد وعبادات لا يزال لإباحات القرامطة آثار فيها. وكانت للقبور شفاعة لا شفاعة فوقها. فأحلّها الناس المحل الأعلى في العبادة والتوسل. والحق يقال: إن هذه البدع وهذه الخرافات القديمة أبعدت العرب: بادية وحاضرة، عن حقيقة الدين الكبرى، وعن جوهره الأزلي الحيّ. أبعدتهم عن الاسلام الذي جاء يبطل عبادة الأوثان وكل ما فيه رائحة العبودية لغير الله. فعادوا إلى ما كان فيه أجدادهم، وأمعنوا أكثر منهم في الخزعبلات والأضاليل، فلم يتوسلوا فقط إلى قبور الأولياء، بل تعددت القباب فوق القبور فصارت الشفاعة الكبرى للأحجار. بل كانوا يعبدون حتى الأشجار فيعلقون على أغصانها الرّقاع، ويقدمون لها النذور. هذه العبادات أبعدت العرب عن الاسلام، بل أنستهم حقائقه وأركانه، فقلّ منهم من كانوا يقرأون القرآن ويفهمون. أهملوا الصلاة والزكاة والحج، وكانوا لا

يعرفون حتى مركز الكعبة، وبكلمة أوضح، عادوا إلى الوثنية، فجاء محمد بن عبدالوهاب يعيدهم إلى الاسلام، فكان منذ نشأته إلى يوم وفاته يدعو للرجوع إلى الكتاب والسنة وقد انتشرت دعوته في نصف قرن بين البادية والحاضرة وعمت في عهد سعود الكبير البلاد العربية جمعاء»[11].

وعلى هذا النحو يمضي الريحاني في الحديث عن الوهابية، ويشرح حقيقتها ليبيّن أهمية ما جاء به هذا المصلح الديني الكبير في أرض الجزيرة، فتكون صفحات كتابه المشتملة على ذلك من أهم المراجع الفكرية والحضارية التي تتناول مثل هذا الموضوع.

وينتقل الريحاني إلى آل سعود، فيذكر أمراءهم، ثم الدور الأول من تاريخهم، وهو دور الفتوحات، فالدور الثاني الذي اتّسم ببعض الفوضى، فالدور الثالث الذي اندلعت فيه الحرب الأهلية. ويقف الوقفات الطويلة أمام سيرة الملك عبدالعزيز ليذكر ما قام به من أعمال جليلة، من وقعة الصريف إلى احتلال الرياض، إلى الحرب في الخرج، فالاستيلاء على القصيم، فرحيل الأتراك، ففتح الحساء، ويوم جراب، وفتح حائل، ومأساة بيت الرشيد، ومفاوضات الانكليز والشيخ مبارك، ومؤتمر العقير، وأمر الاخوان ورسل السلام، والكتاب والسنة والسيف، واستقرار عبدالعزيز في ملك الحجاز ـ ولا ريب في أن الكتاب يعلي شأن السلطان عبدالعزيز لما ترك هذا الملك من إعجاب في نفس الريحاني وقلبه وعقله، فكان شديد الاقتناع بأنه تجسيد لكل مزايا القائد العربي الأمثل.

قلب العراق:

في المقدمة التي كتبها الشيخ محمد رضا الشبيبي لقلب العراق تحليل لهذا الكتاب وشرح لبعض جوانبه، وأحكام على بعض ما جاء فيه. ومن جملة ما قاله الشبيبي: «إن الريحاني قد وضع كتابه هذا بعد زيارته الأولى للعراق عام 1922 حيث تسنّى له أن يتصل بأشهر رجال السياسة والأدب والثقافة إذ ذاك. فلقد زار هذه البلاد بعد الثورة الكبرى التي أسفرت عن اعتراف الانكليز بحقوق العراقيين في السيادة والاستقلال. واستقبل استقبالاً شائقاً، لأن أبناء العراق وجدوا فيه كاتباً عربياً ثائراً على كل شيء. ثائراً على المجتمع الذي نشأ فيه، ثائراً على الغرب الذي هاجر إليه، وعلى الشرق الذي هاجر منه. وللريحاني في قلب العراق آراء استوحاها منذ أكثر من ثلاثين سنة. (كتب الشبيبي المقدمة عام 1957) فاستحسن أشياء، واستهجن أشياء. ولكن الأحوال تبدلت بعد ذلك، والآية انعكست، فلم تحافظ بعض تلك الشؤون الحسنة على حسناتها. وللسياسة المرسومة تأثيرها في العراق من هذه الناحية ـ وله أيضاً تجاربه واختباراته في حضارات الغرب، وفي روح المدنية الغربية. ولكل مدنية، بل لكل حاضرة كبرى روح. فهو يصور روح بغداد بقوله: «هي الحوقلة والاستسلام، وهي الشغب والتمرّد، وهي الورع والتقوى، وهي في هذا الزمان (النفط) ـ وقد يصير النفط في المستقبل روحها الكيماوية العظمى، روحها المركبة في بوتقة هذا الزمان البراق». ويتابع الشبيبي: هذا ما قاله الريحاني عن روح بغداد، كأنه يعني حاضر بغداد هذا اليوم حيث أصبح النفط روح العراق بل روح الأقطار العربية وغيرها من الأقطار المجاورة. فما ألطف نظر الريحاني، وما أصدق فراسته»[12] لكن الريحاني قد لاحظ في العراق مساوىء وعيوباً تتعلق بمظاهر التخلف الحضاري، فأشار إليها بصراحة. وهدفه أن يبث الوعي في النفوس ويحملها على رؤية ما هي فيه راسفة.

وبعد عشر سنوات عاد الريحاني إلى العراق في رحلة جديدة، فإذا به يدهش لما وقع عليه ناظراه من تبدل في الحياة العراقية، ومن خطى عملاقية خطاها هذا البلد العربي في طريق التقدم. فتغيرت الطرقات

والشوارع والأبنية والمؤسسات فكان للريحاني ملاحظات ومقارنات عمرانية واجتماعية لطيفة، وإشارات إلى مظاهر التطور والتجديد واصطناع وسائل الحضارة الآلية.

وقد عرض الريحاني في قلب العراق مواكب الماضي، وحقائق الحاضر وتحدث عن زيارتيه الأولى والثانية وكان اهتمامه في الدرجة الأولى بالجانب الحضاري من حياة العراق عمراناً واقتصاداً وسياسة وثقافة وعلماً ودينا. والكتاب وثيقة كبرى من وثائق تاريخ العراق في تلك الشؤون جميعاً. وقد خصص الريحاني في آخره نحواً من مئة صفحة للحديث عن التعليم والثقافة والأدب، والفكر والشعر والفنون. ووقف بصورة خاصة عند أربعة من أعلام العراق في الأدب هم: الزهاوي، والرصافي، ومحمد الشبيبي، وأحمد الصافي النجفي.

في قلب العراق يعلن الريحاني اعتزازه بأرومته العربية وبالروح الشرقية التي يتقمّصها فيقول: «أنا عربي، رمل البادية عزيز عندي كدماء أبنائها. وسيئات العرب أجمل في نظري من حسنات عبيد التمدن. أنا عربي، ماضي بلادي حي في فؤادي، ومستقبلها نور من أنوار ايماني وإن قيل: حلم، فنعم الحلم أحلمه صباح مساء عند شروق الشمس وعند غروبها»[13]. وآخر حديث له في قلب العراق هو حول الصولجان والرمح والعصا، وعن مهرجان كشفي جرى فيه اللعب بالصوالج والرماح والعصي وقد اتخذ من العصا رمزاً للكشفية، فتحدث عن الكشاف والحركة الكشفية ورسالة الكشاف الوطنية والثقافية والانسانية وقال في الخاتمة: «خير ما أختم به هذا الفصل وهذا الكتاب كلمة في المثل الوطني الانساني الأعلى:

الكشاف هو من رعى نفسه ليحسن رعاية غيره، وقيدها بنظام ليدرك قيمة النظام، وعودها على الخير دون ذكره، وحرية الفكر والقلب مع الشجاعة، والصدق فيها. وكان إلى ذلك ممن يعملون على إقامة العدل في الحكومات، ولتعزيز الحق الانساني في القوميات، فيرى في وطنه صورة محبوبة لجميع الأوطان، ويرى في قوميته ما يربط الانسان بالانسان. فهو الطليعة في نظري، بل هو ركن من أركان الحياة الجديدة المنشودة التي ستشعّ خيراً وجمالاً وحبّاً وسلاماً في كل مكان»[14].

المغرب الأقصى:

يقول الريحاني في مقدمة هذا الكتاب: «بعد رحلاتي العربية المتعددة التي استأثرت بي بضع سنوات نشأت الرغبة في رحلة إلى بلاد عربية أخرى أسماها العرب الأقدمون ـ «المغرب الأقصى». وما كانت هذه الرغبة بأقل إلحاحاً واستبداداً من الرغبات في الرحلات التي تقدمتها. بل كانت أشدّ وأحدّ. فنفذت إلى أقصى نواحي النفس، وصارت تحنّ كالقلب الفتيّ، قلب العاشق إلى ذلك البلد العربي في افريقيا الغربية الشمالية»[15].

وبعد حديث مسهب يشرح فيه الأسباب التي جعلته يتأخر في تنفيذ هذه الأمنية، وهي جميعها أسباب سياسية واجتماعية وقومية فرضها الواجب القومي على أمين الريحاني ليناضل ضد الصهيونية، وضد تيارات التغريب، وليدافع عن فلسطين وقضيتها المقدسة، يقول: «وفي ذات يوم من السنة الثانية من الحرب الاسبانية الأهلية جاءني صديق يقول: في جيش فرنكو مئة وثمانون ألفاً من عرب المغرب كانوا بالأمس يحاربون الاسبان، واليوم يحاربون مع فرنكو مستبسلين، ولا أحد يعرف السبب في ذلك. وأنت الراغب في زيارة المغرب هاك الفرصة السانحة للسياحة والدرس»[16].

لكن الريحاني يتريث ويبقى في الولايات المتحدة حتى تنتهي الحرب الاسبانية، فيشدّ رحاله ويمضي

قاطعاً بحر الظلمات (الأوقيانوس الاطلنطي) في خمسة أيام ونصف يوم.

«رسونا في مساء اليوم السادس في مياه جبل طارق، ثم نزلنا في الليل من السفينة إلى مركب بخاري صغير، فما كنا لنختلف كثيراً تحت جناح الظلام عن اللصوص أو ما يشبههم من أبناء الحرام (الجواسيس مثلاً) في نظر الموظف البريطاني الذي فحص جوازات السفر واستنطق كلاًّ منّا استنطاقاً انكليزياً لطيفاً وجيزاً لا إزعاج فيه ولا اطمئنان. ثم تركنا ننصرف. .»[17].

يقع كتاب المغرب الأقصى في نيف وخمس مئة وخمسين صفحة، ويتكون من ثلاثة أقسام، أولها تاريخي يتحدث عن المغرب الأقصى وعما كان عليه في العقد الأخير من القرن الماضي (القرن التاسع عشر)، وعما آلت إليه أحواله في العقد الأول من هذا القرن. «وفي هذا العلم أو بعضه تدنو من فهم السائح غوامض الأمور الظاهرة والخفيّة، فتتم محاسن السياحة وتزداد فوائدها»

أمّا عناوينه: فمن الاستقلال إلى الحماية - جبل طارق - طنجة - مثلث الأخطار - من الجزيرة إلى القصر الصغير - المدينة البيضاء - المنطقة الخليفية - البيت العلوي - نهضة التعليم - الأحزاب السياسية - الفضل للمتقدم.

وأما القسم الثاني فيتناول الرحلة في المغرب العربي متحدثاً عن الأحداث والمشاهدات وعن معالم الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحضارية بصورة عامة، من الخليفة الحسن إلى الكولونيل خوان بايبدر، إلى العرائش فعمارة الخفر غيلان فالقصر الكبير، فجحيم السجون ونعيمها، فجبال الريف، فالعرب والبربر والمراقبين وما إلى ذلك.

وأما القسم الثالث فخاص بالأندلس، يتحدث عن مدريد والجنرال فرنكو، والشريف الطوباوي، والقصر الخليفي، والأكياس والذي يوسوس في صدور الناس، والعنوان الأخير يدور حول المرأة المغربية. يقول فيه الريحاني: «أقبح ما رأيت في المغرب أكياس تمشي في الأسواق - في الطرف الأسفل من الكيس رجلان وفي الطرف الأعلى رأس وعينان لبنت من بنات حواء»[19].

وقد حمل في هذا المقال حملة عنيفة على حجاب المرأة، لكنه أطلعنا على جوانب مهمة من حياة الناس داخل البيوتْ المغربية. وفي المغرب الأقصى تصوير لتطاحن الدول في تلك الربوع، وحملة على سياسة القروض والاستغلال والانتهازية وسائر ضروب الاستعباد التي سلكها الاستعمار الأجنبي. أما وصف بلاد المغرب وبلاد الأندلس فعلى جانب كبير من الجمال الفني وبراعة التصوير.

قلب لبنان:

ونصل إلى قلب لبنان فنرى الريحاني يجول في المناطق اللبنانية ويتعرف عليها بعُمق ودقة متحدثاً عن أهلها ومزاياهم وأخلاقهم وطرق عيشهم وعاداتهم وتقاليدهم وأزيائهم، وعن قراهم وطبيعة أرضهم ليجمع كل ذلك في فلذة حية؛ في كتاب لم يتيسّر له أن يتمّه؛ إذ عاجلته المنون.

وقلب لبنان هو في بعض وجوهه قلب أمين الريحاني الذي تحسّ نبضه في أحرف الكلمات. وإذا كانت الدوافع التي حدت بالريحاني إلى تأليف كتبه عن «ملوك العرب» و«تاريخ نجد» و«المغرب الأقصى» و«قلب العراق» دوافع سياسية، فإن دوافعه في قلب لبنان هي دوافع وجدانية، ورغبات شخصية حميمة. «ذلك الشاب، بعد أن قضى نصف حياته في المدينة العظمى، مدينة نيويورك عاد إلى مسقط رأسه في لبنان ينشد حقائق الوجود الكبرى. فوجدها في العزلة، أو وجد في العزلة سبيلاً أوصله إليها. ووجدها في الطبيعة، أو وجد في الطبيعة الدليل الواضح عليها. أو وجدها في البساطة، أو وجد في البساطة ألطف ناحية من نواحيها. ووجدها في الجمال

أو وجد الجمال الرمز الأنور من رموزها... أحسّ ذلك الشاب وهو جالس على صخرة الوادي أن يداً تمسح جبينه، وتدلك ما بين عينيه، فأدرك أنه في جبل القداسة، وأنه كيفما اتجه يرى للخالق أثراً في جمال الأودية وجمال الرواسي وأدرك كذلك أن العبادة لا تلبس الثوب القاتم، وأن الاشراق والبشاشة والضحك كلها من نعمائه تعالى».

لقد تجلت هذه الحقائق لذلك الشاب وهو جالس ذات يوم على صخرة فوق هاوية سحيقة. تنتهي إلى ضفة نهر مزدانة بالحور والدفلى تظلل مياهاً تجري هادئة لتسقي في الساحل البساتين. تبارك العقم تحت رجليك والجمال بين يديك - إي ورب الأرز، إن الشمس ترقص على الصخور وتحت الحور والدفلى تستريح وفي البساتين تتعاون والتربة على البرّ والتقوى»[20].

من هنا تاقت نفسه إلى التجول في ربوع لبنان ووديانه وجباله وقراه وسفوحه وأنهاره وهياكله وآثاره ليتعرف إليها عن كثب وليقول فيها ما تستحق أن يقال. وهكذا بدأت الرحلة بزيارة الأرز، وانطلقت إلى سائر الأماكن اللبنانية: الأودية المقدسة، وصنين، وصوفر، وبلاد جبيل، ومناطق كسروان، والمتن وعاليه، والشوف والجنوب، بل قل: لبنان من شماله إلى جنوبه ومن غربه إلى شرقه. وقد أنجز ذلك في خمس عشرة رحلة وصف في أثنائها مفاتن لبنان ومحاسنه ومزاياه الطبيعية والبشرية، وأدخل في ذلك فكراً وفلسفة وفناً وشعراً، فكان «قلب لبنان» وثيقة فنية رائعة عن حياة أهله، وعن مناطقه ومناخه، وأشجاره وأزهاره، وآثاره ومقدساته، وعادات القوم وتقاليدهم وأفراحهم وأحزانهم وأخلاقهم وكل ما يمتّ إلى عيشهم بصلة.

ولقد كان أسلوبه في «قلب لبنان» أسلوباً فنيّاً راقياً، يتجلى في تصويره، وسبكه وإحساسه على نحو ما نرى في المقطوعة التالية: «إني ممن يعجبون بهذا العربي البدوي الذي تصفو فيه عواطف الحب وتشتد لواعجه، وإني ممن يطربهم صوت القصب ذلك الصوت العريض الأجشّ الذي تتمثل فيه خشونة البادية ونغمها الوحيد، نغم الوحشة والقسوة والأمل. أما الرقصة البدوية الشهيرة التي تدعى الدبكة فهي من الفن العالي بمكان. إن في خطواتها همس المرأة ونبرة الرجل، وإن فيها الحركات الهادئة المترددة تقطعها وتصلها الحركات الآمرة المهددة:

يا حلوة بحياة قدك.

والحلوة تميل بقدها وتغنج برجلها، فيضرب الشاب الأرض برجله.

ويكمل البيت: «بدنا بوسه من خدك». وعقدت السلسلة تلك الليلة من الشباب والبنات وكانت على رأسها ربة البيت تلوّح بالمنديل فينفخ القصاب بقصبه. وصفق أحد إخوانه بيديه هاتفاً «زقفة يا شباب». فلعب الطرب في النفوس، وخفت الأيدي والرؤوس. فكنا كلنا مسوقين بالنغم الوحيد، والنظم الفريد، نغم القصب العميق ونظم الأرجل الرشيق، وكان القصاب وهو في وسط السلسلة المستديرة التي تكاد تصير حلقة، يحنو رأسه حيناً وحيناً يرفعه، فيذوب هياماً، ويزيد بنار الدبكة إضراماً»[21].

مصادر البحث

المصادر: مؤلفات الريحاني.

1 ـ ملوك العرب: المؤسسة العربية للدرسات والنشر، بيروت 1980.

2 ـ تاريخ نجد الحديث ومُلحقاته. مطبعة صادر بيروت 1928.

3 ـ قلب العراق ـ دار الريحاني ـ بيروت 1957.

4 ـ المغرب الأقصى: دار الريحاني ـ دار الثقافة ـ بيروت 1975.

5 ـ قلب لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر (الأعمال العربية الكاملة). الجزء الثالث بيروت 1980.

6 ـ الريحانيات ـ مطبعة صادر ـ بيروت 1910.

الحواشي

(1) الأوذيسة: ملحمة يونانية ثانية ولدت من «الألياذة» ملحمة اليونان الأولى، وهي تروي مغامرات (أوليس) بطل الحيلة والدهاء، وأسفاره البحرية في أثناء رجوعه ورجاله من حرب طروادة إلى بلاده.

(2) أمين الريحاني: المغرب الأقصى ـ دار الريحاني ـ دار الثقافة، بيروت. ط 2 ,1975، ص 15.

(3) أمين الريحاني: ملوك العرب. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. الجزء الأول ـ بيروت 1980، ص 10.

(4) أمين الريحاني: ملوك العرب، ص 5-12.

(5) أمين الريحاني: ملوك العرب، ص 166.

(6) أمين الريحاني ـ ملوك العرب، ص 526.

(7) م. ن. ص 527.

(8) أمين الريحاني: ملوك العرب، ص 538.

(9) أمين الريحاني: ملوك العرب ـ المقدمة، ص 13-20.

(10) أمين الريحاني: تاريخ نجد الحديث وملحقاته، وسيرة عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل فيصل آل سعود ـ مطبعة صادر ـ بيروت 1928، ص 3.

(11)أمين الريحاني: تاريخ نجد الحديث، ص 25.

(12) أمين الريحاني: قلب العراق ـ دار الريحاني ـ بيروت سنة 1957 ـ طبعة منقحة ص 4.

(13) أمين الريحاني: قلب العراق، ص 256.

(14) م. ن. ص 278.

(15) أمين الريحاني: المغرب الأقصى ـ دار الريحاني ـ دار الثقافة، بيروت 1975، ص 3.

(16) م. ن. ص 5.

(17) أمين الريحاني: المغرب الأقصى، ص 7-8.

(18) م. ن. ص 12.

(19) أمين الريحاني: المغرب الأقصى ـ ص 196.

(20) أمين الريحاني: قلب لبنان. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. (الجزء الثالث من الأعمال العربية الكاملة). بيروت. 1980. ص 20-21.

(21) أمين الريحاني: قلب لبنان. ص 200-201.